العالمي، وإحياء التزامها ووعيها برسالتها الإنسانية، التي كانت الغاية منها إلحاق الرحمة بالعالمين، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ذلك أن استرداد دور الأمة العالمي، وإحياء التزامها برسالتها، وإعادة بناء خيريتها، وتحقيق إخراجها الجديد للناس، لا يتأتى إلا بتلمس ظروف وشروط ميلادها الأول، أو بتعبير أدق: إخراجها الأول، وامتلاك القدرة على التحقق بالمرجعية وخصائص خير القرون، وعلى الأخص مرحلة السيرة وجيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية -كما أسلفنا- ومن ثم التوغل في التاريخ العام للأمم، والاهتداء خاصة بالنماذج التي عرض لها القرآن الكريم فيما اصطلح عليه بالقصص القرآني، والمسيرة التاريخية للأمة المسلمة، والإصابات التي لحقت بها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، في ضوء السنن الإلهية المطردة، وأقدار الله تعالى في السقوط والنهوض.

ولعل الفترة أو المرحلة الأحق بالبحث والدراسة والتحليل باستمرار، هي مرحلة السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وحقبة خير القرون؛ لأنها تُصوِّب المسار، وتمثل المعيار والمرجعية، وتشكل نقطة الانطلاق، وتحقق الارتكاز الحضاري، وتوضح الملامح والقسمات المميزة للشخصية الحضارية الإسلامية التاريخية، كما تمثل البعد الإنساني والعالمي للرسالة الإسلامية، والفترة الأمينة والمأمونة والسابقة لتحويل المبادئ إلى برامج، والقيم إلى خطط، والفكر إلى فعل، والنظرية إلى تطبيق، وإدراك مقاصد الدين، والانطلاق في الاجتهاد،

والحوار، والمشاورة، والمفاكرة، والمناظرة، إلى الآفاق والأبعاد المستقبلية، التي تتلاءم مع خلود الإسلام ومرونته، وقدرته على العطاء في كل زمان ومكان.. فتجربة هذا الجيل الرباني، واجتهادهم، وفعلهم، وتنزيلهم للقيم على الواقع، جزء من خلود هذا الدين، ووسائل إيضاح معينة وخالدة لكيفية التعامل مع النصوص، في الكتاب والسنة، في الظروف والأحوال المختلفة.

وهنا قضية لابد من التوقف عندها ولو قليلاً، وهي أن للصحابة الكرام، رضي الله عنهم، موقعًا متميزًا في مسيرة الإنسانية التاريخية، بل في مسيرة النبوة وصَحْبِها ورَكْبِها الممتد، فشأنُهم ليسَ كَشَأنِ غيرِهم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِهِ أحدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، وَلَنْ يَلْحَقَ بِهِ أَحَدٌ ممنْ جَاءَ بَعْدَهُم.

لقد كانوا معجزة خالدة من معجزات الإسلام، ومعيارًا لكل جيل، في كل زمان ومكان.

ولما كان لجيل الصحابة هذه المكانة الفريدة من الخيرية، وهذا التميز في تاريخ البشرية بشكل عام، وفي تاريخ النبوة بشكل خاص، وكانوا الجيل الذي تجسَّدَت الرسالة في حياتهم، وكانوا الجيل الذي سوف يبقى يمثل أنموذج التأسي، وأنهم الجيل الذي رضي الله عنهم بنص القرآن: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ووصلوا إلى مرحلة من الرِّضى والالتزام والانضباط، والإذعان والاطمئنان إلى ما هم عليه من الخير، فوصفهم القرآن بقوله: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، كان لا بد لهذا الجيل أن يشكل المنجم الثري الخالد للعطاء.

لقد وصفَ الرسولُ ﷺ موقعهم بالنسبة للأمة، بقوله: «**النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي،**

فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون» (أخرجه مسلم).

وأعتقد أن الدلالة واضحة جدًا في وصف الرسول ﷺ لجيل الصحابة: فإن ذهابَ النجوم يعني اختلال نظام الكون، وتَوَقُّف الحياة الدنيا.. وإذا غابت سنة الرسول ﷺ، ومعرفة الوحي، انتشرت البدعةُ، واختلتْ مسيرةُ الحياة، وعَمَّتِ الفوضى، وضلَّ الرأي.. وإذا غُيِّبَ جيلُ الصحابةِ، افْتَقَدَتِ الأمةُ المرجعية، واهتزَ الارتكازُ الحضاري، واعتلَّ ميزانُ التطبيق، ودخلتِ الأمةُ في التنازعِ والحيرةِ، والارتباك والفشل، والتبعثر، وعواصف الأهواء.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة في الرواية، ونقل الحديث.. والعدالة لا تعني العصمة من الخطأ بحال من الأحوال، قال الخطيب في «الكفاية»: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ إلى تعديل أحد من الخلق.. فهم على هذه الصفة إلى أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برَّأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنده.

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله شيء مما ذكرنا، لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها، من الهجرة والجهاد، والنُّصرة، وبذل المُهَج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على

عدالتهم، والاعتقاد لنـــزاهتهم، وأنهم أفضل من المعدِّلين والمـــزكِّين، الـــذين يجيئون من بعدهم إلى أبد الآبدين» (الكفاية، ص٩٣-٩٦).

من هنا ندرك أبعاد الجريمة الكبرى لمن كان شأنهم في تاريخ الأمة هـــدم الجيل الأنموذج وحرمان الأمة من دليل الاتباع، والخوض في عدالة الصحابة بعد هذه الشهادات من القرآن والسنة، ومحاولة اختزال هذا الجيل، المـــشهود لـــه، بشخص أو فرد ادعيت له العصمة عن الخطأ، مهما كان علمه ومكانته.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «مَنْ كان منكم متأسيًا فليتأس بأصـــحاب محمدﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعْمَقَهَا علمًـــا، وأقلَّهَـــا تَكَلُّفًـــا، وأقْوَمَها هَدْيًا، وأحْسَنَها حالاً.. قومًا اختارهم الله لصُحبة نبيه، وإقامة دينـــه، فاعرفوا لهم فَضْلَهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدى المـــستقيم» (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر).

ويقول ابن تيمية، معقبًا على قولـــه تعـــالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨): «والرِّضـــا من الله صفـــة قديمـــة، فلا يرضى إلا عن عبدٍ علمَ أنه يوافيه على موجبات الرضا -ومن رَضِيَ الله عنه لم يسخطْ عليه أبدًا- فكل من أخبر اللهُ عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنـــة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن مـــن أهـــل ذلك» (الصارم المسلول، طبعة دار الكتب العلمية، ص٥٧٢-٥٧٣).

ويقـــول ابن حزم، رحمـــه الله: «فمَن أخبرَنَا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحلُّ لأحدٍ التوقُّفُ في أمرهم، أو الشك فيهم البتة» (الفصل في الملل والنِّحَل، ٤/١٤٨).

لذلك، ومن هنا، ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على النيل من هـــذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنـــزيل الإسلام على الواقـــع، ومحـــل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وليس ذلك بالنسبة لعصر، أو قـــوم، أو جيـــل، أو موضـــع، أو وضـــع اجتماعي، وإنما هم جيل التأسي الخالد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، إنهم جيل التأسي العالمي والإنســـاني؛ لأنهم حَمَلَة رسالة عالمية إنـــسانية خالـــدة، ونماذج تطبيقها، وأوعية حَمْلِها ونَقْلِها، والقاعدة البشرية الأولى، التي قامـــت بها: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤).

والأمر الذي يتطلب كثير التأمل والتفكير في النظر وتقويم الاقتداء وتحقيق أدوات المقاربة مع هذا الأنموذج ووسائلها، حيث استوعبت حيـــاة الأنمـــوذج جميع جوانب الحياة وشكلت دليلاً لها، أن نطرح باستـــمرار السؤال التـــالي: لماذا كان هذا الجيل هو جيل الأنموذج ومحل الاتباع بإحسان؟ وبماذا تميز عـــن غيره من الخلق؟

ونحاول باستمرار استقراء الصفات والخصائص التي بها كان خير القـــرون ومحل الاقتباس والاقتداء، ومن ثم محاولة وضع الخطط والمناهج وأدلـــة العمـــل والوسائل المناسبة لتنزيل هذه الخصائص والصفات على إنـــساننا ومؤســـساتنا

التربوية والإعلامية والاجتماعية والسياسية في محاولة لإيجاد مقاربات مع هـذا الجيل وتصويب المسالك والمسارات.

ومما لا شك فيه أن الأنموذج في طبيعته يبقى معياراً متفرداً لا يتكـرر، ولا يمتد بكل خصائصه وأبعاده وصفاته؛ لأن ذلك من خـصائص المعيارية، لذلك قد لا نستغرب عدم امتداد الجيل بكل مواصفاته، ونقع في إشـكاليات سوء الفهم وسوء التقدير، فنقول: إن الأنموذج والمرحلـة الذهبيـة في الحيـاة الإسلامية لم تمتد أكثر من كذا سنة ومن ثمّ بدأ التـدهور(!) ولـو أدركنـا خصائص وصفات وطبيعـة الأنمـوذج والمثل الأعلى لعرفنا استحالة التكـرار وما يحتمل من خلل واهتزاز، ولعرفنا لماذا لم يمتد الرشد أو الخلافة الراشـدة، وأن الحياة الإسلامية استمرت قرباً وبعداً من هذا الأنموذج؛ وتبقى المقاربة هي الطريق إلى الكمال والاكتمال.

ونقول: على الرغم من الفترات المتألقة والمضيئة في تاريخنـا الحـضاري الطويل يبقى للأنموذج تميزه وتفرده، ولا تخرج جميع المحاولات عن المقاربة مـع هذا الأنموذج.

إن هدم الأنموذج في حياة الأمة يسلمها إلى فقـدان البوصـلة والمعيـار والافتقار إلى المرجعية ونقطة الارتكاز الحضاري المأمونة، ودفعهـا إلى التيـه وضياع الجهات وغياب المعايير الضابطة لمسيرة الحياة.

وهـذا الكتاب هو محـاولة لتقديم أحـد نماذج الاتباع، سيـدنا عمر ابن الخطاب ﷺ القوي الأمين، حيث التقت العبقرية بقيم الوحي وتربية النبوة، عبقرية الفقيه في الدراية وعبقرية القائد في الإدارة، الذي اجتمعت فيه القـوة،

من حيث الخبرة ورجاحة الرأي وملكة الاجتهاد، مع عظيم الأمانة، التي هي ثمرة الإيمان؛ الإيمان الذي كان -فيما يروى عنه- يخيف الشيطان؛ لقد كانت خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ولا تزال أنموذجاً لحل المعادلة الصعبة بين الأخلاق والسياسة.

إن ما يمتلك عمر ﷺ من الخصائص والمؤهلات رفعته إلى مقام استحقاق النبوة: فـ«لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب» (أخرجه الحاكم).

ولقد كانت قولة المؤرخين قولة تاريخية محقة عندما قالوا: «رحم الله عمر، إنه اتعب من جاء بعده».

والكتاب يقدم قراءات من مواقع متعددة ومتنوعة لمنهج الخلافة الراشدة في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يمكن أن تُشكل نوافذ للميراث العظيم والغني، الذي يرتكز إليه المسلم في إعادة البناء والمقاربة مع الحكم الراشد بعد فشل الشعارات والادعاءات والاتجاهات والأنظمة السياسية المجافية للإسلام والمعادية لقيمه على الأرض العربية وفي المجال الإنساني، وتلك القراءات -في نظري- لا تغني عن دراسة تحليلية شاملة لمسيرة هذا الخليفة الراشد، من خلال معطيات الواقع، بكل مكوناته، ومحاولة المقاربة وتجسير الفجوة بين المسلمين وميراثهم الحضاري والسياسي، الذي لا يعني اختزاله في الوصول إلى الحكم، بمؤهل وبدون مؤهل، ذلك أن الوصول إلى الحكم يعتبر ثمرة لبناء حضاري وثقافي وأخلاقي متكامل، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.

إن الأمة التي تمتلك مثل هذه التجربة التاريخية الحضارية وهذا الأنموذج المتألق، الذي جمع بين القيم الخلقية الخيِّرة وانطلق منها، فكان الكتاب، وكان

الميزان، وكانت الإدارة الفذة، والسياسة الحكيمة المحكومة بـالحق والعـدل، جديرة ومؤهلة لاستعادة دورها في الشهود الحضاري.

فالأمة التي تمتلك في تاريخها من مثل هذا الأنموذج وهذا الرصيد لا تنطلق من فراغ، ولا يمكن لها أن تقبل بما سواه أو ما دونه مهما زُيّن لها.

ولا أزال أذكر بهذه المناسبة قولة الشاعر الكبير نزار قباني - غفر الله له- الذي لخص بقولته في مقابلة مع أحد الإعلاميين، الحال التي عليها العالم اليوم، وتطلعه إلى الحكم الراشد، عندما سأله الإعلامي: إذا طُلب إليك أن تختار شخصاً من التاريخ لتخاطبه، من تختار؟ وماذا تقول له؟ فقال فوراً: اختار عمر بن الخطاب ﷺ.. فقال الإعلامي: وماذا تقول له: قال الشاعر الكبير: أقول له: «عد إلينا، فقد اشتقنا إليك».

ويبقى المطلوب كيف يعود إلينا هذا الأنموذج لإشاعة العدل، والخلوص من الاستبداد السياسي، وإهدار كرامة الإنسان وانتهاك حقوقه؟

إن معاودة استدعاء الأنموذج الراشدي يعتبر من أهم المعالم لتسديد طريق النهوض وإبصار شروطه ومقوماته، سعياً لمعاودة إخراج الأمة المسلمة الوسط لتنطلق برسالتها الإنسانية فتكون شاهدة على الناس، وتلحق الرحمة بالعالم المأزوم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.